القصص في الشعر العربي

بقلم
بدوي أحمد طبانه

لعل اجدر ما يوسم به هذا العصر انه عصر تبادل الثقافات فقد تحطم كثير من القيود التي كانت تحول دون هذا التبادل بين امم الأرض . وكان من اثر هذا أن نقلت الى البلاد العربية خلاصة الفكر الغربي في مختلف مناحي العلم والفن

وكما اننا افدنا من الغرب فوائد مادية ، تبدو اثارها فيما اعترى نظم حياتنا من التغيير في الشكل والجوهر ، فاننا افدنا فوائد عقلية لا يمكن أن تجحد ، ولم نكتب هذه الكلمة لاحصاء تلك الفوائد ، او تعداد مظاهرها ولكن حسبك ان تلقي نظرة على مجتمعاتنا وما اعتراها ، وعلى معاهد العلم وما يعلم فيها الان ، وما كان يعلم فيها قبيل هذا القرن ، وعلى نهج الكتب التي كان يتزود منها طلاب الثقافة ، وما يقرؤن الان ولا شك أنك ستفطن بعد موازنة يسيره الى مقدار ما اثرت فينا عقلية الغرب وثقافته .

على ان الادب اصابه من ذلك اكبر الاثر ، فقد تنوعت اساليب دراسته وتغير منهاج البحث تغيراً ملحوظا وابتدأ التأليف في تأريخ الادب العربي في مطلع هذا القرن على النهج المعروف في دراسة الاداب الاروبية ، ولا يزال حتى اليوم يسلك هذه السبيل في اكثر المعاهد في مصر والبلاد العربية .

وقد وقفت طائفة كبيرة من قادة الادب في هذه البلاد على الاداب الاوربية ودرستها دراسة فحص وامعان ، إما في معاهد الادب في الغرب ، واما بوقوفهم على آثار ادباء الغرب كما كتبوها ، او كما نقلها المترجمون ، وكان من جراء تذوق هذه الاثار الفنية ، والوقوف على الاتجاهات في دراسة الادب ونقده أن وقف هؤلاء ينظرون الى ادبهم العربي ، يحاولون ان يصلوه بهذه الاداب التي قرءوها ودرسوها فان وجدوا ما يصل التراث الادبي هنا بالتراث الادبي هناك احسوا بكثير من الغبطة ، وسرت في قلوبهم نشوة النصر ، وان حيل بينهم وبين ما يشتهون تأولوا وعللوا ، وكلفوا انفسهم رهقا في سبيل التأويل والتعليل .

ومن هذه المسائل ما نقلوه عن نقاد الادب الاوربي في تقسيمهم الشعر الى ثلاثة اقسام ، الشعر الغنائي او الوجداني ، والشعر القصصي ، والشعر التمثيلي . ويجعلون من الاول كل ماعبر به الشاعر عن خفقات قلبه وخلجات نفسه ، والثاني ما يعالج فيه الشاعر حوادث من صور تاريخية ، ومصور ما يصور هذه العصور من افكار ومعتقدات ، ويجعلون ميزة الثالث الحركة والحوار ، وما يجريه الشاعر على السنة اشخاص روايته التمثيلية .

ولقد حاول علماؤنا ان يجدوا في البحث والاستقصاء ، علهم يجدون نماذج لهذه الاقسام في ادبنا العربي وهدى المنصفين بحثهم الى ان اكثر فنون الشعر العربي ترجع الى القسم الاول الذي يكون محوره الشاعر نفسه ، اذ هو يصف ما هاج شاعريته ، ويمدح من أصاب من فضله ، ويهجو من أذآه او من حرمه خيرا ويتغزل فيمن احب . وهكذا أصاب

اما الشعر التمثيلي فلم يكن منه شيء اللهم الا في هذه النهضة ، والمبرز في حليته من شعراء العربية أحمد شوقي في رواياته الكثيرة التي الفها ، واحتذاه فيها غيره من شعراء مصر

اما الشعر القصصي ، فقد اضطربوا فيه وذهبوا مذاهب شتى ، واكثر ما ذهبوا اليه جرى وراء الاوهام ، لسنا ندري أن كان الزمن يحمل في طياته ما يحقق هذه الاوهام يوما ما ، ام انه سيمحوها ، ويمحو آثارها من العقول والافكار .

ففي ابحاثنا من يذهب الى ان تلك الحروب التي كانت في الجاهلية ، والتي يسمها الناس ايام العرب كالفجار والبسوس وداحس والغبراء ونظائرها لا بد ان تكون قد خلفت في الشعر العربي مثل ما خلفت حروب الاغريق في الادب

اليوناني كالالياذة والاوديه ، ويذهب هؤلاء الى ان بعض المطولات المأثورة كمعلقة زهير ومعلقة عنتره ، وكلتاهما تتصل في بعض نواحيها بالحرب المعروفة بحرب داحس والغبراء ، يمكن ان يكون منها شعر قصصي او ما يشبهه ، ومثل ذلك يقولون في معلقة عمرو بن كلثوم والحارث بن حلزه وهما من آثار حروب بكر وتغلب.

على ان هذه المطولات ونظائرها — ان وجدت — وان تعرضت لهذه الحروب ، وذكر ما ابلي فيها بعض رجال القبائل ، وما ابدوا من ضروب البسالة لا يمكن ان تؤدي مفهوم الشعر القصصي بمعناه عند الاوربيين الذين عرفوه بما ذكرنا منها او وجدنا من الروابط اذ ان هذه القصائد ليس لها سمة الشعر الذي يسرد الحوادث التاريخية ، ويذكر بالآراء والمعتقدات السائدة عصر تلك الحوادث وانما هي في حقيقتها تمدح بشجاعة بعض الافراد او الجماعات الصغيرة ، وهذا اقرب الاشياء الى مفهوم الشعر الوجداني ، وليس فيها ما يتعرض لعقيدة عامة اعتنقتها العرب في مرحلة من مراحل حياتهم ، وحاول شعراؤهم ان يكونوا منها ما يشبه ما تضمنته الاساطير المعروفة في ادب اليونان ، والتي تمثل جانبا من عقيدتهم في تعدد الالهة ونسبة بعض الاعمال الخارقة لهولاء الذين يرمزون اليهم بالأبطال . ومن هؤلاء الباحثين من يتوسع في فهم الشعر القصصي فيجعل منه ما يذكر شعراء اشتهروا بشعرهم الغزلي يذكرون فيه مغامراتهم وركوبهم الاهوال وما يبلون من بلاء في تعرضهم للمخاطر في سبيل بلوغ ما ارادوا من الوصول الى من احبوا ويجعلون في مقدمة هؤلاء شاعر الغزل عمر بن ابي ربيعة في مطولته التي اولها [امن آل نعم انت غاد فمبكر] وغيرها من شعره الذي يذكر فيه ركوبه الليل الى من يهوى ، ويسرد ما جرى بينه وبين محبوبته من الاحاديث عند فجأة اللقاء والخشية من فتيان الحي اذا احسوا به وتحدثه بشجاعته واللجوء الى الحيلة في التخلص مما اوقع نفسه فيه والتماس اسباب النجاة مما خشي منه على نفسه ونحو ذلك مما سبقه اليه شيخ الشعراء امرؤ القيس في معلقته وغيرها .

وهذا اللون من الشعر في جملته وتفصيله ليس الاحديثا عن النفس لا علاقة له اطلاقا بمعنى الشعر القصصي الذي لا يعبر فيه الشاعر عن عاطفته ولا يذكر شيئاً عن ميوله الخاصة وانما يتحدث عن اشخاص قصته وميولهم اما الشاعر فلا يكاد يظهر شخصه في قصته واذا اردنا ان نطلبه فلنلتمسه في الجماعة التي يتحدث عنها .

وهنا لا بد لنا من كلمة ازاء هذه المحاولات وهي أنه من العبث قياس أمة بغيرها فلكل أمة خصائصها في الحياة واساليب العيش ولها كذلك مقاييسها في التفكير وفي تذوق الفنون ومنها الادب .. وليس يضير العرب ولا يضير فنهم أنه لم يعالج هذا اللون من الشعر ولم يعزف هذا اللحن من الموسيقا ...

القاهرة — بدوي أحمد طبانه .

اكرم الوتري

حالمة

تمر على وجهك الذكريات — وتمضي مشردة واجمة
بها أثر من هوى الامسيات — ومن سحر أنجمها الساهمة
إذا لمعت أطفأتها الحياة — فتاهت بأنوارها القاتمة

* * *

لمحت على ناظريك الشجون — تلملم أشتاتها الهائمة
ترنح أشباحها في العيون — وإن كنت تخفينها باسمة
وعندي في النفس بقياحنين — تهيج بها اللفتة الناعمه

* * *

متى تفهمين اصفرار المغيب — وحلكة آفاقنا الغائمة ؟
وأن هنا فوقنا الدروب — الى حيرة مرة دائمه
تظنين أن الأماني تؤوب — وتحيا .. فيا لك من حالمه !

بغداد — اكرم الوتري